الأُخوّة. . . تلك القيمة الفريدة

يُقال إنّ أربع أفكار أو أربعة تصوّرات أساسيّة تسيطر على عقول الناس. وعندما نذكر هذه الأفكار، فإنّما نضع أنفسنا في إطار المُثُل العليا، أو القِيَم، أو ما يسمّى في الفكر السياسيّ: «الأُوتُوبيا»، وقد عبَّر عنها توماس مُور (١٤٧٨-١٥٣٥م) في كتابه الشهير: **الأوتوبيا**، الذي لا تزال له مكانته في تاريخ الفكر البشريّ.

التصوُّر الأوّل هو فكرة الأبديّة، وهي من العقائد الأساسيّة في الكثير من الأديان، كما أنّها من الأفكار التي تلازم الإنسان وتوقه إلى البقاء والاستمرار في الحياة، وقد طوَّر علم اللاهوت وعلم الكلام هذا التصوّر وأسّسا له بالبراهين والإثبات. ولا شكّ في أنّ فكرة الاستنساخ في العلم الحديث، وخصوصًا على صعيد الثقافة الشعبيّة والتبسيطيّة، تفسح المجال لاسترسال الخيال في الأبديّة.

التصوُّر الثاني يكمن في أنّ الحرّيّة هي مجال يُتيح للإنسان أن يعمل ما يرتئيه، وأن يعبِّر عن ذاته وأفكاره وآرائه بدون عائق في إطار الديموقراطيّة. وهذا ما يبدو من النضال في وجه العبوديّة، مرورًا باقتصاد السوق والليبراليّة والعولمة.

أمّا التصوُّر الثالث فإنّه يتناول ملامح المساواة بين الناس، ولا شكّ في أنّ المساواة في الممارسة هي من القِيَم التي قلّما تُحترَم، فتتجاوزها الأنظمة والحكومات والمؤسّسات والأفراد. إنّ المساواة على المستوى السياسيّ، وكذلك على المستوى الاقتصاديّ والنقديّ، هي موضوع المطالبة اليوميّة من جانب معظم طبقات المجتمع. ومن البديهيّ، أنّ التصوّرات الثلاثة المذكورة، هي من فئة تصوّرات الأوتوبيا، لا تخلو من

الأنانيّة والسعي إلى السعادة الذاتيّة، بالرغم من أنّ لكلّ تصوّر من تلك التصوّرات ضوابطه وقواعده، وأبعاده الاجتماعيّة والعقليّة والنفسيّة.

أمّا التصوُّر الرابع فإنّه يتناول قيمةً، لا كغيرها من القِيَم، وهي أن يسعى الإنسان إلى التفتيش عن سعادته عبر إسعاد الآخرين. إنّها قيمة الأُخوّة الحقيقيّة، لا بل قيمة الغيريّة الحقيقيّة، أي إنّ الواحد لا يستطيع أن يفرض على الآخرين ما يرتئيه هو، بل إنّ السعادة الحقيقيّة تقضي بأن يُتاح المجال للآخر كي ينمو ويحدِّد بنفسه الطريق إلى السعادة، وذلك في إطار الحوار المتواصل المتّزن، وإطار العلاقة التي تجمع وتعزّز قناعة الجوّ الاجتماعيّ. إنّها القيمة الأساس.

وعندما ننظر إلى واقعنا اليوم، نقول إنّ التصوُّر الأخير هذا نزل علينا وحيًا وإيمانًا وفلسفة، إلّا أنّه لم يتحوّل إلى واقع محسوس، ولم يستطع أن يحمل مجتمعاتنا ومؤسّساتنا وأنظمتنا إلى مستوى المشروع والممارسة الواقعيّة. وإنّ هذا التصوُّر، على نقيض ما نتصوُّره من أنّه عاطفيّ وحسّيّ، يتضمّن قدرة نقديّة لكلّ العوامل التي تعادي الأخوّة الحقيقيّة. فلا أخوّة، ولا غيريّة، ولا علاقة حقيقيّة، من دون احترام حرمة الآخر. ولذلك، قال بعض المفكّرين إنّ هذا التصوُّر، ربّما الخياليّ، سيكون من أكثر القضايا مناقشة في القرن الحادي والعشرين. هذا التصوُّر يمكنه أن يستلهم مبادئ الأخوّة الإبراهيميّة الحقّ، التي أساسها الاحترام، لا مجرّد التسامح الشكليّ.

وتأتي هذه الأفكار في سياق ملفٍّ تنشره المشرق، مع بداية القرن الحادي والعشرين، عن «الهويّة والغيريّة». ويتبع هذا الملفّ مقالات متنوّعة، منها واحدة حول «العيش المشترك في لبنان بين الأمس واليوم»، وأخرى حول «وحدة المؤمنين»، وثالثة حول «مسيحيّة الحيرة حتّى نشأة الإسلام»، وكأنّ قضايا القرن الحادي والعشرين كُتِبَ لها أن تكون من القضايا التي أقضّت مضجع القرن العشرين. ولأنّ القرن المقبل بحاجة، كما الأمس، إلى التنهّد والصلاة، فقد تضمّن العدد مزمورًا أسماه واضعه «النشيد المئة والثاني والخمسون»، وهو دعوة إلى الصلاة من أجل أن تكون قيمة الأخوّة فاعلةً، تحرّك الواقع نحو النموّ والمزيد من العطاء.